عبدالوهاب المسيري *

الصهيونية في مائة عام (٤/٣)

(الصفحات ١٤٧- ١٦٦)

ملخّص

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن حقيقة الصهيونية بأسلوب تحليلي تفسيري بمعزل عن الخطاب التآمري والتعبوي. والأسلوب التفسيري لا يعني رفض الواقع الموضوعي، بل يعني الجمع بين الموضوعية والذاتية، ويحاول المقال أن يطرد الأوهام التي تساور المهزومين بشأن الحركة الصهيونية من قوة وقدرة على التنبؤ.

ويتطرق المقال إلى تعريف الصهيونية والتاريخ اليهودي و وَهم الوحدة اليهودية وأسباب ظهور الصهيونية.

الإجماع الصهيوني

الاختلافات بين التيارات الصهيونية تدور في إطار الصهيونية الأساسية الشاملة التي ترجمت نفسها في الوقت الحاضر إلى ما تسميه «الإجماع الصهيوني». و«الاجتماع» في عالم السياسة هو الاتفاق بين النخبة والغالبية الساحقة من الشعب بشأن عدد من المسلّمات الفلسفية والأخلاقية والسياسية. و«الاجتماع الصهيوني» هو اتفاق داخل الدولة الصهيونية بين «التيارات والاتجاهات والأحزاب» الصهيونية التي تضم الغالبية الساحقة من المستوطنين الصهاينة بشأن الأمن وحدود الدولة والعلاقة مع الفلسطينيين

* - باحث مصري متخصّص في القضية الفلسطينية وتاريخ الصهيونية.

ومع يهود العالم ودول العالم، وبخاصة دول العالم الغربي وفي مقدتها الولايات المتحدة التي ترعى الكيان الصهيوني. وقد تظهر اختلافات بشأن الوسائل والنهج، ولكنها لا تنصرف قط إلى المسلمات النهائية. والعقد الاجتماعي الذي يستند إليه التجمع الصهيوني هو نفسه هذا الإجماع، وهو الذي يشكل المرجعية النهائية لكل الأحزاب والتيارات الصهيونية.

والإجماع الصهيوني يصدر عن جملة واحدة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». هذه الجملة البسيطة العنصرية الإبادية يتم تطويرها على شكل بناء أيديولوجي متماسك، مع إضافة الديباجات اليهودية التي تحمل الرؤية العنصرية الإبادية بحيث تبدو كما لو كانت أمرًا إنسانيًا رائعًا، ويمكن تلخيص بنود الإجماع الصهيوني فيما يلي:

١ ـ اليهود شعب واحد، طليعته هم المستوطنون الصهاينة، وفلسطين هي أرض الميعاد أو «إرتس بسرائيل» (وطن اليهود القومي) ، وليست فلسطين وطن أهلها، وعلى يهود العالم أن يهاجروا إلى «إرتس بسرائيل»، وأن يلتفوا حول دولتهم الصهيونية القومية، ويقوموا بدعمها ماليًا وسياسيًا؛ فهي المركز وهم الهامش. هذه الدولة يجب أن تكون دولة يهودية خالصة دولة اليهود ودولة يهودية في آن واحد، تجسد الرؤى اليهودية، وبإمكان اليهودي أن يحقق فيها ذاته وهويته.

٢- وجود الفلسطينيين في وطنهم فلسطين ـ حسب التصور الصهيوني ـ أمر عرضي زائل، ومن ثم لا بد من التخلص منهم إما بالطرق السلمية أو الإرهابية. وانطلاقًا من كل هذا يصبح من «حق» الدولة الصهيونية أن «تدافع» عن نفسها، وعن حقوقها المطلقة بكل ضراوة من خلال «جيش الدفاع الإسرائيلي» ضد «إرهاب» السكان الأصليين، أي أن الفلسطينيين ممن يرفضون الإذعان للرؤية الصهيونية. وقد تتفاوت مفاهيم السلام بين حزب صهيوني وآخر صهيوني يساري، ولكن في التحليل الأخير نجد أن مفهوم الأمن لدى الأحزاب الصهيونية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يشير إلى مضمون جوهري واحد؛ فالتيار العمالي يتبنى مقولة «بن جوريون» : «إن العرب لا

يفهمون سوى لغة القوة».

وينظر الصهاينة إلى القضية الفلسطينية باعتبارها «قضية أخلاقية» وحسب، ومن ثمّ يجب عدم الحديث عن «عودة» الفلسطينيين إلى ديارهم («إعادة توطينهم» في المصطلح العربي) ، وإنما يجب الحديث عن «منح تعويضات» مالية للمتضررين منهم (وهذا استمرار للعقلية التجارية القومية الصهيونية، التي ترى أن كل شيء يباع ويشترى بما في ذلك الأوطان) ، أما المتبقون فيستوعبون في أماكن وجودهم، أي في البلدان العربية المختلفة، وبخاصة سوريا ولبنان .

٣- سياسة الأمر الواقع هي السياسة الوحيدة التي يمكن اتباعها مع العرب؛ فالأمر الواقع هوالذي يغير الواقع **العربي**، ويفرض واقعًا صهيونيًا جديدًا عليه، ويمكن تحقيق السلام بالشروط الصهيونية من خلاله.

٤- لا يمكن تفكيك المستوطنات القائمة بالفعل؛ فتفكيك المستوطنات يضرب في صميم الشرعية الصهيونية، ولا بد من الحفاظ عليها بشكل أو بآخر. ولكن، هل يجب أن تكون هذه المستوطنات متصلة، بطرق برية أم بأنفاق تحت الأرض، أم تظل منفصلة؟ وهل هي مستوطنات أمنية مؤقتة (أمنية) أم دائمة ـ عضوية، إن صح التعبير؟ كل هذه أمور ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها بين أعضاء حزب العمل وحزب الليكود.

٥- القدس هي العاصمة الموحدة والأزلية للدولة الصهيونية وليست موضوعًا للمساومة ، وبإمكان الفلسطينيين أن يأخذوا مكانًا خارج القدس، وليسموه ما يشاؤون (الـ Guds) على سبيل المثال، وهذه (مع الأسف) ليست مجرد نكتة سياسية، وإنما حقيقة صهيونية.

٦- الدولة الصهيونية تضم الضفة الغربية، وحدودها هي نهر الأردن. ويختلف العماليون فيما بينهم (كما يختلفون مع أعضاء الليكود) عما إذا كان الوجود الإسرائيلي على نهر الأردن مستمرًا عضويًا دائمًا أم مؤقتًا (أمنيًا) إذ يرى أعضاء الليكود أن حدود إسرائيل هي نهر الأردن بالفعل، وأن الوجود الإسرائيلي هناك وجود دائم، أما

العماليون مستعدون «للخروج» من هذه الأرض من «الناحية النظرية» على الأقل.

٧- الكيان الفلسطيني الذي سينشأ بعد ذلك (في الضفة والقطاع) كيان سياسي منقوص السيادة، منزوع السلاح وبدون جيش . ويشبهه الكيان الصهيوني «بيورتوريكو» و«أندورا» (والأولى دولة حرة تابعة للولايات المتحدة، لسكانها حق التصويت، دون أن يحملوا الجنسية الأمريكية. أما الثانية، فتخضع لنظام حكم تحت سيادة فرنسا وأسقف من إسبانيا؛ فهي تقع بين البلدين).

أما ماذا تسمى هذه الدولة؛ هل هي «حكم ذاتي» أم «دولة فلسطينية مستقلة»؟ فهذه مسألة ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها.

٨- تنازل معظم الصهاينة عن الشعارات القديمة مثل إسرائيل الكبرى «حدوديًا» (أي إسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات)، وبدأوا في تبني شعارات مثل «إسرائيل العظمى اقتصاديًا» المهيمنة على المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج؛ فهذا هو عصر النظام العالمي الجديد وما بعد الحداثة، وقد أثبت الصهاينة مقدرة غير عادية على التكيف مع المعطيات الدولية، وهذه سمة أساسية للدولة الوظيفية.

٩- يذهب الإجماع الصهيوني ـ رغم كل ديباجات الاستقلال الصهيوني والاعتماد على الذات ورفض الجوييم (أي غير اليهود أو الأغيار) إلى أنه دون الدعم الغربي (وبخاصة الأمريكي) للمستوطن الصهيوني لن يقدَّر له البقاء والاستمرار، وأن هذا المستوطن الصهيوني هو أساسًا دولة وظيفية أسست للاضطلاع بوظيفة أساسية، هي الدفاع عن المصالح الغربية، وأن الغرب قد تبنى المشروع الصهيوني وضمن له البقاء والاستمرار؛ كي يدافع عن مصالح الغرب في المنطقة، ودون أداء هذه الوظيفة لن يكون هناك دعم.

تاريخ الصهيونية

بعد أن عرفنا الصهيونية من خلال الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة والمهودة،

وبعد أن عرضنا للتيارات الصهيونية المختلفة، يمكننا أن نقدم تاريخًا موجزًا للفكر الصهيوني والحركة الصهيونية:

١- المرحلة التكونية:

ظهرت الفكرة الصهيونية ـ أول ما ظهرت ـ في الأوساط البروتستانتية في انجلترا ابتداء من أواخر القرن السادس عشر مع الثورة التجارية وحركة الاكتشافات، ويُطلق على هذه النزعة اسم «الصهيونية المسيحية»؛ لأنها كانت مغلَّفة بديباجات مسيحية (وهي تمارس الآن بعثًا جديدًا في الولايات المتحدة، وخصوصًا في بعض الأوساط البروتستانتية (الأصولية) المتطرفة). ومع تزايد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية ظهرت نزعات ومفاهيم صهيونية في أوساط الفلاسفة ولا سيما الرومانسيين والمفكرين السياسيين والأدباء العلمانيين، تنادي بإعادة توطين اليهود في فلسطين باعتبار أنهم شعب عضوي منبوذ.

وكان المفهوم في بداية الأمر عائمًا غائمًا، ولم تكن أبعاده السياسية واضحة، ولكن التطورات السياسية أدت إلى ظهور خلفية جديدة للصهيونية. و«قضية استرجاع إسرائيل» التي كانت قضية أثيرة لدى العاطفيين وكتاب المقالات والأدباء.. وكل مؤمن بالإنجيل وكل صديق للحرية، أصبحت قضية حقيقية مطروحة على المستوى السياسي وبشكل جدّي (كما قالت التايمز عام ١٨٤٠)؛ أي أن الصهيونية لم تعد فكرة هامشية أو فلسفية أو تطلعا عاما، وإنما أصبحت فكرة مركزية في الوجدان السياسي الغربي.

ولعل أهم القرائن على هذه الحقيقة أن المفكرين الصهاينة أصبحوا قريبين من صانع القرار، ويمكن أن نذكر في هذا المضمار جورج جولر George Gawler حاكم جنوب أستراليا، وهنري إنس Henry Innes وزير البحرية البريطانية الذي كتب مذكرة عام ١٨٣٩ موجهة إلى كل دول شمال أوروبا وأمريكا البروتستانتية، وقام بالمرستون Palmerston رئيس الوزراء برفعها إلى الملكة فيكتوريا، تدعو إلى إعادة اليهود إلى فلسطين. وقد نشرت التايمز المذكرة في عام ١٨٤٠، ونشرت جريدة جلوب اللندنية

القريبة من وزارة الخارجية مجموعة مقالات عام ١٨٣٩/ ١٨٤٠ تؤيد فيها مسألة تحييد سوريا (التي ناقشها مؤتمر لندن).

٢- مرحلة بلورة الفكر الصهيوني:

ولكن رغم مركزية الفكرة الصهيونية فإنها ظلت مجرد فكرة سياسية ومشروع يدرس، ولكن ظهور «محمد علي» المفاجئ غيّر الأوضاع تمامًا؛ إذ قلب موازين القوى، وهدد المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يُفترض أن العالم كله إن هو إلا ساحة لنشاطه وسوق لسلعه، ووضع حدًا لآمال الدول الغربية التي كانت تترقب اللحظة المؤاتية لاقتسام تركة الرجل المريض المحتضَر. ولذا تحالفت الدولة الغربية كلها، وضمنها فرنسا حليفة «محمد علي»، وعقدت مؤتمر لندن عام ١٨٤٠، وقررت فيه الإجهاز عليه، فاضطرته إلى التوقيع على «معاهدة لندن لتهدئة المشرق».

وتمثل هذه النقطة، كما يقول ناحوم سوكولوف (رئيس المنظمة الصهيونية ومؤلف كتاب تاريخ الصهيونية أول تاريخ للصهونية) «نقطة تحول في تاريخ فلسطين»، إذ تبلورت الفكرة الصهيونية بسرعة، وخرجت من نطاق الأفكار السياسية، ودخلت حيز المشاريع السياسية، فطرحت فكرة تحييد سوريا؛ بمعنى فصلها عن كل من «محمد علي» و«تركيا»، ويضيف سوكولوف: «في هذه اللحظة كان من الممكن أن يستعيد اليهود أرضهم القديمة لو كان عندهم منظمة لتنفيذ الخطة». وإن أردنا ترجمة هذا الكلام إلى مصطلح سياسي أكثر دقة لقلنا: «إن المسألة الشرقية وهي المشاكل الناجمة عن وضع الإمبراطورية العثمانية المتردي التي كانت فلسطين جزءاً لا يتجزأ منها، والذي كان يؤثر في ميزان القوى القائم أو أوروبا ـ التقت بمسألة أوروبا اليهودية، فاندمجتا تمام الاندماج، وتم التوصل إلى إمكانية حل المسألة اليهودية عن طريق توظيف اليهود في حل المسألة الشرقية، ويأخذ الحل الشكل التالي:

أـ تتفق الدول العظمى على تسوية المسألة الشرقية على أساس استقلال سوريا.

ب ـ يتم إدخال «مادة جديدة» في نسيج سوريا الاجتماعي.

ج ـ هذه المادة هي اليهود الذين سيتم استرجاعهم إلى فلسطين حاملين معهم عـدَّة الحضارة وأجهزتها؛ بحيث يكونون نواة لخلق مؤسسات أوروبيـة تحـت رعايـة القـوى الأوروبية الخمس.

د – ستجد انجلترا حليفًا جديدًا سيثبت أن الصداقة معه في نهاية الأمر ذات نفع لهـا في التعامل مع المسألة الشرقية.

ويمكن القول بأن عملية بلورة منظومة الفكر الصهيوني بشكل كامل تمت على يد كل مـن اللـورد شافتـسبري (١٠٨١ – ٥٨٨١) والـسير لـورانس أوليفانـت (٩٢٨١ – ٩٨٨١٩). وكان أولهما يرى اليهـود باعتبـارهم شـعبًا مـستقلاً وجنـسًا عبريًـا يتمتـع باستمرارية لم تنقطع؛ فيهود العهد القديم (الخارجون من مصر، الصاعدون إلى كنعان) هم أنفسهم يهود انجلترا وفرنسا وبولندا (الخـارجون مـن المنفـى الـصاعدون إلى فلـسطين العربية). وقد بين شافتسبري أن هذا الـشعب يمكـن توظيفـه في خدمـة الإمبراطوريـة الإنجليزية، لأنهم «جنس معروف بمهارته ومثابرته الفائقة، ويستطيع أعضاؤه العـيش في غبطة وسعادة على أقل شيء، فهم قد ألفوا العذاب عبر العصور الطويلة». وهم عـلاوة على هذا شعب مرتبط ببقعة جغرافية محددة خارج أوربا هي فلسطين؛ فبعثهم لا يمكـن أن يتم إلا هناك، كما أن وجودهم في هذه البقعة يمثل عنصرًا حيويًا في الرؤية المـسيحية للخلاص. وكما قال: «إن أي شعب لا بد أن يكون له وطـن. الأرض القديمـة للـشعب القديم». ثم طور هذا الشعار ليصبح «وطن بلا شعب لشعب بـلا وطـن». كمـا لاحـظ شافتسبري أهمية سوريا ـ وضـمنها فلـسطين ـ لانجلتـرا ومـدى حاجتـها «لإسـفين بريطانيا هناك».

وعلى الرغم من أن هذه الأفكار طُرحت قبل عشرين سنة من ميلاد هرتـزل؛ فـإن كل ملامح المشروع الصهيوني موجودة فيها، ولا سيما فكرة توظيف وضع اليهود الـشاذ داخل المجتمعات الغربية في خدمة هذه المجتمعات عن طريق نقلهم. وصـاغ شافتـسبري رؤية اليهود ككتلة مستوطنين لا تخدم دولة غربية واحدة، وإنما كل دول الغـرب (وهـو

الأمر الذي تحقق فيما بعد).

أما الشخصية الثانية المهمة فهو «سير لورانس أوليفانت» صديق «لورد شافتسبري» الذي كان يرى ـ مثل بعض السياسيين البريطانيين في نهاية القرن التاسع عشر ـ ضرورة إنقاذ الدولة العثمانية من مشاكلها المستعصية؛ لتظل حاجزًا صلبًا ضد الزحف الروسي عن طريق إدخال عنصر اقتصادي نشط في جسدها المتهاوي، وقد وجد أن اليهود هم هذا العنصر؛ ولذلك دعا بريطانيا إلى تأييد مشروع توطين اليهود ـ لا في فلسطين وحسب ـ وإنما في الضفة الشرقية للأردن كذلك. وكان المشروع يتلخص في إنشاء شركة استيطانية لتوطين اليهود برعاية بريطانية وبتمويل من الخارج ويكون مركزها إستانبول . وقد لاحظ «ابن هالبرن » (وهو أحد المؤرخين المحدثين للصهيونية ومن المؤيدين لها) أوجه الشبه بين هذه الخطة واقتراحات هرتزل فيما بعد.

٣- الوعود البلفورية:

لم يكن شافتسبري وأوليفانت إلا تعبيرًا عن رؤية الحضارة الغربية لليهود باعتبارهم شعبًا منبوذًا. وقد عبرت هذه الرؤية عن نفسها فيما نسميه «الوعود البلفورية» (نسبة إلى وعد بلفور) ، وهي التصريحات التي أصدرها الساسة الغربيون، والتي يربطون فيها بين اليهود وفلسطين، ويدعونهم إلى الاستيطان فيها. ومن أهمها تصريح نابوليون في أوائل القرن التاسع عشر حين دعا اليهود للاستيطان في «بلاد أجدادهم». وقد صدرت وعود بلفورية من ألمانيا كان أهمها خطاب من دوق إيلونبرج باسم حكومة القيصر إلى هرتزل مؤرخ في سبتمبر ١٨٩٨، وجاء فيه أن جلالته على استعداد لأن يأخذ على عاتقه محمية يهودية في حالة تأسيسها. كما أصدرت حكومة روسيا القيصرية وعَدًا بلفوريًا أخذ شكل رسالة وجهها فون بليفيه وزير داخلية روسيا إلى تيودور هرتزل يعبر فيها عن تأييد روسيا المعنوي والمادي للحركة الصهيونية.

ويمكن النظر إلى مشروع توطين شرق أفريقيا الذي تبنته انجلترا عام ١٩٠٥ باعتباره وعدًا بلفوريًا آخر.

ومما يجدر ملاحظته أن كل الشخصيات التي كانت وراء إصدار الوعود البلفورية معادية لليهود تود ترحيلهم من أوطانهم إلى أي مكان آخر. فسلوك نابوليون تجاه أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا لا يترك مجالا للشك في شأن كرهه لهم، أما قيصر ألمانيا فقد كان يعرف تمامًا أن اليهود هم «قتلة المسيح» وأن الشعب الألماني لا يكنُّ لهم سوى الكره. وكان فون بيليفيه متورطًا في عملية قمع أعضاء الجماعات اليهودية في روسيا وتدبير مظاهرات ـ وأحيانا مذابح ـ ضدهم.

من الواضح إذن أن الدافع وراء صدور الوعود البلفورية ليس حب اليهود وإنما الرغبة في التخلّص منهم باعتبارهم شعبا عضويًا منبوذاً. ولكن أوروبا كانت حضارة نفعية مادية لا تكترث لا بالحب ولا الكره، وتلتزم بأمر واحد وهو تحويل العالم إلى مادة استعمالية لا قداسة لها، وكما يقول بالمرستون: «ليس لنا أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون، بل مصالح دائمة». وكان معظم الذين يصدرون الوعود البلفورية يهدفون إلى توظيف اليهود في خدمة مشاريعم وإلى تحويلهم إلى عملاء لهم.

ولا يختلف وعد بلفور عن كل الوعود البلفورية التي سبقته أو صدرت بعده، وفيما يتصل بالدوافع الكامنة وراء صدوره يكاد يكون هناك ما يشبه الإجماع بين المؤرخين على أن الإمبراطورية البريطانية كانت تريد توظيف اليهود في محاولتها التخلّص من البنود الخاصة بفلسطين في اتفاقية «سايكس بيكو» السرية المبرمة بين بريطانيا وفرنسا؛ فبعد أن تم عقد هذه الاتفاقية شعر البريطانيون بأن البنود المذكورة لا تخدم مصلحتهم كثيرًا، وأنه لو قامت سيطرة فرنسية على فلسطين فإن الدفاع عن مصر وقناة السويس سيصبح أمرًا محفوفًا بالمخاطر. ولذلك اتخذت وزارة الحرب من المشروع الصهيوني وسيلة للانسحاب بلباقة من الاتفاقية.

ومع أن تعديل اتفاقية «سايكس بيكو« كان ـ بلا شك ـ هو السبب المباشر لإصدار الوعد، إلا أن «الإطار العام لمخططات الإمبراطورية» كان هو الهدف الاستراتيجي النهائي الكامن. ويمكن التدليل على هذا بالعودة إلى المذكرة التي تقدم بها السير هربرت

صموئيل في مارس ١٩١٥ ووضح فيها الاحتمالات الخمسة لمستقبل فلسطين بعد انهيار الدولة العثمانية. وما يهمنا هو الاحتمالان الرابع والخامس في هذه المذكرة. وكان الاحتمال الرابع هو «الإقامة المبكرة لدولة يهودية»، وتم رفضه لأن اليهود كانوا لا يشكلون آنذاك سوى سدس سكان فلسطين على الأرجح، «الأمر الذي سيؤدي إلى تلاشي حلم الدولة الصهيونية» (بسبب مقاومة السكان الأصليين). وتضيف المذكرة أن «زعماء الحركة الصهيونية كانوا على إدراك تام لهذه الاعتبارات».

ولهذا كان الاحتمال الخامس (إنشاء محمية بريطانية في فلسطين لفترة من الزمن ثم إعلان الدولة الصهيونية بعد ذلك) هو الاحتمال الوحيد القابل للتحقيق.

وفي مجال عرض مزايا هذا الاحتمال قالت المذكرة: إن إعلان الحماية البريطانية سيقابل بالترحيب من قبل السكان الحاليين (أي الفلسطينيين)، وسيتم بالتالي تحاشي الصدام مع اليهود. ولكن هذا الوضع ـ حسبما جاء في المذكرة ـ هو مجرد غطاء مؤقت لإعطاء فسحة من الوقت «للمنظمات اليهودية في ظل الحكم البريطاني لكي تقوم بابتياع الأراضي وإنشاء المستعمرات وإقامة المؤسسات التربوية والدينية، وللتعاون في الإنماء الاقتصادي للبلاد، وستنال مسألة الهجرة اليهودية مركز الأفضلية بحيث يتحول السكان اليهود إلى أكثرية مستوطنة في البلاد»، أي توطيد دعائم الاستيطان الصهيوني.

والهدف من كل هذا كما جاء في المذكرة ليس أية دوافع إنسانية أو أخلاقية، وإنما «إنشاء محمية تشكل ضمانًا لسلامة مصر»، أي لسلامة المصالح الإمبراطورية البريطانية، التي كانت مصر تشكل إحدى ركائزها الأساسية آنذاك. ويشير صموئيل في المذكرة ـ وفي أماكن أخرى ـ إلى أنه بعد أن يستقل اليهود في دولة خاصة بهم تشكل هذه الدولة جزءاً من الحضارة الغربية، وتدافع عن مصالحها. كما ستؤدي هذه الخطوة إلى شعور يهود العالم بالامتنان تجاه بريطانيا بحيث يؤلف اليهود كتلة متحيزة.

هذه هي الدوافع الحقيقية لصدور وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧، والذي جاء فيه «أن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في

فلسطين، وأنها ستبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف».

أما الحديث عن حب الإنجليز لليهود فهو حديث لا طائل من ورائه؛ فبلفور على سبيل المثال لم يكن يضمر كثيرًا من الحب والاحترام لليهود. وقد اعترف هو نفسه لوايزمان بدوافعه المعادية لليهود. وفي المقدمة التي كتبها لتاريخ الصهيونية الذي ألفه سوكولوف، يتحدث عن اليهود باعتبارهم عبئًا على الحضارة الغربية لا بد أن تتخلص منه. ولم يكن لويد جورج رئيس الوزراة البريطانية التي أصدرت الوعد يكترث باليهود، بل إنه استخدم في أحد الانتخابات التي أجربت بعد صدور الوعد عبارات معادية لليهود ضد أحد منافسيه.

٤- الصهيونية بين أعضاء الجماعات اليهودية:

وهكذا اكتملت الصهيونية فكرًا وممارسة، وخرجت من حيز الآمال الدينية والأفكار السياسية بل والمشاريع السياسية إلى حيز التنفيذ الفعلي بصدور وعد بلفور (أهم حدث في تاريخ الصهيونية) ولكن من الملاحظ أن الشخصيات الأساسية في تاريخ الفكر والممارسة الصهيونية (حتى نهاية القرن التاسع عشر) هي شخصيات غير يهودية (نابليون ـ شافتسبري ـ أوليفانت ـ تشامبرلين ـ لويد جورج ـ بلفور.. الخ). ويسمى اتجاههم الصهيوني «صهيونية الأغيار» (أي غير اليهود). وعلى عكس ما يتصور الكثيرون كانت الحكومة البريطانية قد قررت تحويل فلسطين إلى مستعمرة استيطانية إحلالية صهيونية قبل أن يقوم الصهاينة من اليهود بجهودهم المكثفة «للضغط» على الحكومة البريطانية لإصدار وعد بلفور. بل ويلاحظ انصراف اليهود عن تأييد الحركة الصهيونية (لمدة طويلة حتى بعد صدور وعد بلفور) فقد اعترف وايزمان عام ١٩٢٧ بأن وعد بلفور «كان مبنيًا على الهواء»، وروي أنه في عام ١٩٢٧ كان يرتعد؛ خشية أن تسأله الحكومة البريطانية عن مدى تأييد اليهود للحركة الصهيونية، فقد كانت تعلم أن «اليهود ضدنا، كنا وحدنا نقف على جزيرة صغيرة، مجموعة صغيرة من اليهود لهم ماض أجنبي».

وهنا يطرح السؤال نفسه: هل الصهيونية إذن ظاهرة غير يهودية؟ وردنا على هذا السؤال سيكون بالإيجاب. فالصهيونية ـ كما أسلفنا ـ هي بالدرجة الأولى نظرية سياسية غربية ومشروع غربي استيطاني إحلالي، كان أعضاء الجماعات اليهودية بمنأى عنه تمامًا لأسباب عديدة.

أ ـ لم يكن أعضاء الجماعات اليهودية مشاركين في عمليات صنع القرار في الغرب، بل ولم يكونوا قريبين من صناع القرار.

ب ـ لم تكن جماعات الضغط اليهودية قد تكونت بعد؛ فعدد أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من بلدان أوروبا كان صغيرًا. بل إن انجلترا التي شهدت تصاعدالدعوة الصهيونية لم يكن فيها يهود مع بداية العصر الحديث، وظل اليهود فيها يشكلون أقلية صغيرة للغاية لا يعتد بها حتى منتصف القرن التاسع عشر.

ج ـ كانت اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية قد قامت بتحويل فكرة العودة إلى أمر يتحقق في آخر الأيام؛ أي إلى ضرب من الحلم الديني الذي لا يتحقق إلا في مجال التاريخ المقدس، لا على مستوى التاريخ الإنساني الزمني؛ ولذا كان اليهود ـ وبخاصة في الغرب ـ يرفضون التورط في مشاريع العودة التي تدعي أنها مشاريع قومية. وقد رفض «مجلس المندوبين ليهود انجلترا» الاقتراح الذي تقدم به الكولونيل تشارلز تشرشل (١٨١٤ – ١٨٧٧) ـ الصهيوني غير اليهودي ـ لتوطين اليهود في فلسطين.

د ـ شهد منتصف القرن التاسع عشر ظهور اليهودية الإصلاحية بتأكيدها المثل الاندماجية ورفضها فكرة العودة الفعلية إلى فلسطين رفضًا تامًا. وعقد عام ١٨٤٥ مؤتمر فرانكفورت الشهير الذي حذف من كتب الصلوات جميع التوسلات للعودة إلى أرض الآباء وإحياء دولة يهودية. وحينما عقد المؤتمر اليهودي الأول عام ١٨٧٢ لبحث مشكلة يهود رومانيا لم يتطرق إلى أي حل عن طريق الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

هـ ـ ظهرت في صفوف اليهود حركة «الهسكلاة» (حركة التنوير اليهودية) التي دعت اليهود للاندماج في أوطانهم.

و ـ شهدت كثير من بلدان أوروبا حركة تحديث وتصنيع قوية أتاحت فرص الحراك الاجتماعي أمام أعضاء الجماعات اليهودية. كما أن كثيرًا من حكومات الغرب سعت جاهدة لدمج اليهود.

وقد ظلت الصهيونية ـ حتى بين اليهود ـ ظاهرة شرق أوروبية أساسًا، ولكن بالتدريج بدأ يهود الغرب يتبنونها، وهذا يعود إلى أنه مع نهاية القرن التاسع عشر وتفاقم المسألة اليهودية الشرق أوروبية بدأ تدفق مئات الآلاف من اليهود من شرق أوروبا إلى غربها؛ حيث كان التصور العام أنهم يشكلون كتلة بشرية غريبة غير مندمجة في المجتمع، كما كان وجودهم يؤدي إلى زيادة معدلات البطالة وانتشار الأمراض الاجتماعية، وكان هذا يتسبب في استجابة المجتمعات الغربية لوجودهم استجابة سلبية، وكانت المجتمعات الغربية تحاول التخلص منهم (كما تفعل الآن مع وجود أقليات عربية أو إسلامية كبيرة). ومما له دلالة أن بلفور كان رئيسًا للوزراء عام ١٩٠٥، وسعى جاهدا آنذاك لاستصدار تشريعات من البرلمان البريطاني للحد من هجرة «الغرباء»، أي يهود شرق أوروبا.

ولم تكن استجابة يهود أوروبا الغربية المندمجين لهجرة يهود شرق أوروبا مختلفة كثيرًا عن استجابة شعوب غرب أوربا لها؛ فوصول هؤلاء الغرباء كان يهدد مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية المتميزة. فكانوا ينظرون إلى هؤلاء الوافدين الغرباء باعتبارهم على أسوأ تقدير ـ خطرًا يتهددهم ، أو ـ على أحسن تقدير ـ باعتبارهم إخوة في الدين سيئي الحظ يستحقون الإحسان وحسب.

وهكذا تلاقي الطرفان الغربيان ـ اليهودي الغربي المندمج وغير اليهودي ـ عند نقطة واحدة، وأصبح يجمعهم هدف واحد؛ التخلص من الوافدين الغرباء في أسرع وقت عن طريق تحويل سبل الهجرة إلى خارج أوروبا. وقد عبر ذلك عن نفسه من خلال مشاريع صهيونية يمولها يهود الغرب لإغاثة يهود الشرق وللتخلص منهم في الوقت نفسه. وقد قلص يهود الغرب صهيونيتهم إلى أقصى حد؛ فالدعوة الصهيونية ـ حسب

تصورهم ـ لا تنطبق عليهم، وإنما على يهود شرق أوروبا وحدهم؛ أي إن المشروع الصهيوني أصبح لا يهدف إلى توطين كل اليهود، وإنما إلى توطين البؤساء من يهود الشرق وحدهم؛ ولذا أطلق المفكر الصهيوني بوروخوف على هذا النوع من الصهيونية «صهيونية الصالونات».

ومن هنا فنحن نقسم الصهيونية إلى قسمين:

أ ـ الصهيونية التوطينية: هي الصهيونية التي تدعو إلى توطين اليهود في فلسطين، ويستبعد الداعي نفسه من عملية الاستيطان، وصهيونية نابوليون وشافتسبري وأوليفانت من هذا النوع، كما أن صهيونية يهود غرب أوروبا والولايات المتحدة تنتمي لهذا التيار.

ب ـ صهيونية استيطانية: وهي صهيونية اليهودي الذي يحمل متاعه وسلاحه ليذهب إلى فلسطين، فيطرد سكانها ويحل محلهم، والصهيونية الاستيطانية هي الصهيونية التي تعمل في فلسطين، فتنشئ المؤسسات الاستيطانية، الاقتصادية والعسكرية، وتنظم المستوطنين داخل التنظيمات الزراعية العسكرية، وتتعارف مع الدولة الراعية، وتضع الخطط الكفيلة بالقضاء على مقاومة السكان الأصليين وسحقها تمامًا، وتقوم بالمهام التي توكلها إليها الدولة الراعية. ويمكن القول بأن الصهيونية الاستيطانية هي صهيونية يهود شرق أوروبا الذين يهاجرون ـ بكامل إرادتهم أو صاغرين ـ من بلادهم، ويستقرون في فلسطين، ليكوِّنوا الجيب الاستيطاني الصهيوني.

٥- مرحلة ما بعد بلفور:

بعد إعلان وعد بلفور، وبعد اكتساب المنظمات الصهيونية الشرعية الاستعمارية التي كانت تسعى إليها تغيرت الصورة تمامًا؛ فلم تعد القضية قضية بعض قيادات الفائض اليهودي من شرق أوروبا، ولم تعد المسألة متصلة بإغاثة بضعة آلاف من اليهود، وإنما أصبحت المنظمة تابعة لأكبر قوة استعمارية على وجه الأرض آنذاك، وأصبح لها وظيفة محددة هي نقل المادة البشرية اليهودية إلى فلسطين لتأسيس قاعدة لهذه القوة. ولذا فلم يعد هناك مجال للاختلافات الصغيرة بين دعاة الاستيطان العمليين مقابل دعاة بذل

الجهود الديبلوماسية مع الدولة الراعية. كما لم يعد هناك أي مبرر لوجود دعاة الصهيونية الإقليمية (أي توطين اليهود خارج فلسطين)، وتساقطت بالتالي كثير من التقسيمات الفرعية، أو أصبحت غير ذات موضوع، وتم تقسيم العمل على أساس جديد يقبله الجميع، وظهر ما يمكن تسميته «الصهيونية التوفيقية»، كما أن الرفض اليهودي للصهيونية فقد دعامته الأساسية؛ الخوف من ازدواج الولاء؛ إذ أصبح تأييد الصهيونية أمرًا لا يتناقض مع ولاء الإنسان الغربي لوطنه وحضارته.

وتاريخ الحركة الصهيونية بعد ذلك هو تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين تحت رعاية حكومة الانتداب. وقد ظهرت بعض التوترات بين القوة الاستعمارية الراعية والمستوطنين (وهو توتر يَسِمُ علاقة أية دولة راعية بالمستوطنين التابعين لها، وهو لا يعود إلى تناقض المصالح، وإنما إلى اختلاف نطاقها؛ فمصالح الدولة الراعية أكثر اتساعًا وعالمية من مصالح المستوطنين)؛ ولذا، فقد أصدرت الحكومة البريطانية الراعية مجموعة من الكتب البيضاء؛ لتوضح موقفها من المستوطنين الصهاينة ومن العرب. وقد انتقل دور الدولة الراعية من انجلترا إلى الولايات المتحدة، ولكن كل هذه العناصر لا تغير بنية الفكر الصهيوني ولا اتجاه الحركة، ولا تؤثر في المنظمة الصهيونية.

أما بالنسبة للمنظمة الصهيونية، فبعد صدور وعد بلفور كان ضروريًا أن يكون لها ذراعها الاستيطاني الذي يتعامل مع حقائق الموقف في فلسطين. وقد أسست المنظمة الصهيونية ساعدها التنفيذي المعروف باسم «الوكالة اليهودية» عام ١٩٢٢؛ إذ نص صك الانتداب البريطاني على فلسطين على الاعتراف بوكالة يهودية مناسبة لإسداء المشورة إلى سلطات الانتداب في جميع الأمور المتعلقة بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

وفي عام ١٩٢٩ نجح وايزمان ـ رئيس المنظمة الصهيونية آنذاك ـ في إقناع أعضاء المؤتمر الصهيوني السادس عشر بضرورة توسيع الوكالة اليهودية؛ بحيث يتشكل مجلسها من عدد من أعضاء المنظمة، وعدد مثله من غير أعضائها. وكان الغرض من ذلك استمالة أثرياء اليهود التوطينيين لتمويل المشروع الصهيوني، دون إلزامهم بالانخراط في

صفوف المنظمة، والإيحاء في الوقت نفسه بأن الوكالة تمثل جميع يهود العالم، ولا تقتصر على أعضاء المنظمة.

وكان من شأن هذه الخطوة أن تعطي دفعة قوية للحركة الصهيونية، وتدعم الموقف التفاوضي للمنظمة الصهيونية مع الحكومة البريطانية، التي كانت يقلقها تصاعد الأصوات الرافضة للصهيونية في أوساط يهود بريطانيا (وقد ظلت المنظمتان تعرفان بالاسم نفسه على النحو التالي: المنظمة الصهيونية / الوكالة اليهودية حتى عام ١٩٧١ حين جرت عملية مزعومة وشكلية لإعادة التنظيم؛ بحيث أصبحت المنظمتان منفصلتين قانونيًا ولكل منهما قيادة مختلفة).

ولم يهدأ الصراع تمامًا بين التوطينيين والاستيطانيين؛ فحتى عام ١٩٤٨، كان الصراع يدور حول: من يتحكم في المنظمة؟ وحول تحديد أهداف المشروع الصهيوني. أما بعد عام ١٩٤٨ فإن مجال الصراع أصبح يتحدد بتعريف اليهودي (الديني والعلماني) إذ حسمت قضية التحكم في المنظمة لصالح المستوطنين تمامًا، ولم يعد الصهاينة التوطينيون يهتمون بها.

الجماعات اليهودية والصهيونية

على الرغم من معارضة الأغلبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية الصهيونية؛ فإن قيادتها سقطت في يد الصهيونية في نهاية الأمر من خلال تحالفها مع القوى الإمبريالية. وعلى أية حال، لقد كان اعتراض معظم أعضاء الجماعات اليهودية على الصهيونية ذا طبيعة برجماتية، ولا ينصرف أبدًا إلى طبيعتها وبنيتها كحركة استعمارية إحلالية؛ إذ إن خطر الصهيونية بالنسبة إليهم كان يكمن في أنها قد تعطي مصداقية لتهمة ازدواج الولاء، وهي تهمة لم تعد ذات بال بعد أن أصبحت الدولة الصهيونية عميل التشكيل الاستعماري الغربي وحليفه الاستراتيجي الوحيد ثم الأساسي في المنطقة.

وأصبح الانتماء إلى الغرب يكمل الانتماء إلى الصهيونية، ولا يتعارض معه باعتبار

أن الصهيونية نفسها منتمية إلى هذه الحضارة الغربية التي تشكل الإطار الأكبر لكل من الجماعات الصهيونية، والدولة الصهيونية، والتشكيل الإمبريالي الغربي في وجهيه العسكري والاستيطاني.

ومع هذا، وعلى الرغم من نجاح الصهيونية في تسلم مقاليد القيادة؛ فإن موقف أعضاء الجماعات اليهودية من الحركة والدولة الصهيونية يتسم بكثير من التركيب، ويمكن أن نصنف موقفهم هذا إلى قسمين أساسيين: تأييد للصهيونية في مقابل مختلف أشكال عدم تقبلها.

١ – تأييد الصهيونية:

لا يمكن القول: إن أعضاء الجماعات اليهودية يؤيدون الصهيونية تأييدًا أعمى وكاملا، بل العكس هو الصحيح ـ في تصورنا ـ .

أ ـ الصهيونية الاستيطانية:

لعل أهم أشكال التأييد هو دعاة الصهيونية الاستيطانية الذين يطالبون يهود العالم بالهجرة إلى فلسطين واستيطانها، والمحافظة على الطابع الصهيوني لدولة إسرائيل، وهؤلاء يأتون ـ في الدرجة الأولى ـ من شرق أوروبا ـ المصدر الأساسي للمادة البشرية ـ (انظر أدناه: الصهيونية النفعية).

ب ـ الصهيونية التوطينية:

وهي صهيونية يهود غرب أوروبا ويهود الولايات المتحدة ممن يطالبون بتهجير اليهود إلى فلسطين. وهؤلاء يؤيدون المشروع الصهيوني، ويدعمونه ماليًا، ويضغطون في مصلحته سياسيًا، وينظمون التظاهرات من أجله، لكنهم لا يهاجرون أبدًا إلى الدولة الصهيونية، وفي الماضي، كان الباعث الأساسي للصهيونية التوطينية الخوف من تدفق يهود شرق أوروبا، لكنه أصبح الآن البحث عن الهوية، والرغبة في أن ينتمي اليهودي إلى شيء ضخم، وهي رغبة مبعثها تفاهة حياة الإنسان في المجتمعات الاستهلاكية الحديثة، وخلوها من المعنى، وافتقارها إلى التعين والخصوصية. وهذا النوع من

الصهيونية لا يتناقض البتّة مع العقد الاجتماعي الأمريكي الذي يسمح لمواطنيه بالتعبير عن هويتهم الإثنية الحقيقية أو الوهمية، وعن حبهم لوطنهم الأصلي ما دام هذا لا يتعارض مع مصلحة أمريكا. وإسرائيل بالنسبة إلى التوطينيين هي الوطن الأصلي. ولنا أن نلاحظ أن الوطن الأصلي هو البلد الذي يهاجر الإنسان منه لا إليه، وبالتالي فإن الأسطورة التوطينية تقف على طرف النقيض من الأسطورة الصهيونية الاستيطانية.

ج ـ الصهيونية النفعية أو صهيونية المرتزقة:

وهي صهيونية هؤلاء الذين ينضمون إلى الحركة الصهيونية ويدافعون عنها، بسبب ما يحققونه من مغانم من خلالها، على الرغم من ادعائهم أنهم يلتزمون مبادئها. وهذا الوصف ينطبق على بيروقراطية المنظمة الصهيونية العالمية وعلى بعض العناصر داخل المستوطن الصهيوني، وينطبق أخيرًا على يهود الفلاشا وعلى معظم المهاجرين السوفييت الذين وفدوا مع موجة الهجرة الأخيرة.

٢- رفض الصهيونية:

أ ـ الرفض على أسس دينية أو علمانية:

يرفض بعض اليهود الصهيونية إما من منظور ديني وإما من منظور اندماجي علماني. والذين يرفضونها من منظور ديني ينقسمون إلى قسمين: الأرثوذكسي والإصلاحيين. ويعترض اليهود الأرثوذكس (جماعة ناطوري كارتا مثلاً) على الحركة الصهيونية باعتبارها حركة علمانية تجعل من اليهود أمة بالمعنى العرقي للكلمة بما يتنافى مع تعاليم الدين اليهودي، التي تجعل اليهود شعبًا بالمعنى الديني فحسب؛ ترتبط هويته بمدى تنفيذه للأوامر والنواهي. ويرى هؤلاء اليهود الأرثوذكس أن الصهيونية حركة مشيحانية زائفة تتحدى الإرادة الإلهية؛ إذ بدلا من دعوة اليهود إلى الانتظار بصبر وأناة إلى أن يأذن الرب لهم في العودة؛ فإنها تحرضهم على أخذ زمام الأمور في أيديهم والعودة إلى فلسطين لاستيطانها.

أما الإصلاحيون، فهم ـ كما أسلفنا ـ يسقطون الجانبين الإثني والقومي في اليهودية،

ويجدون في الصهيونية عودة إلى القبلية وضيق الأفق وحرفية التفسير. ويرى كثير من المتدينين أن الدولة الصهيونية حلت في الوجدان اليهودي محل الإله، وحل الولاء لها ودعمها محل إقامة الشعائر. وكما قال الحاخام الإصلاحي السكندر شندلر . «يتصور اليهود الآن أن إسرائيل هي معبدهم، وأن رئيس حكومتها هو حاخامهم الأكبر». وقد وصفها حاخام أرثوذكسي بأنها مثل العجل الذهبي، أي عبادة وثنية قربانية تحل محل العبادة الحقيقية.

أما من يعارضون الصهيونية من منظور اندماجي علماني، فبعضهم ليبرالي والبعض الآخر اشتراكي،وهما يشتركان في رؤية إمكان حل مشكلة وضع اليهود في المجتمعات الغربية، إما من خلال زيادة الليبرالية في المجتمع، وإما من خلال زيادة الإجراءات الاشتراكية فيها. وقد أصبح عدد رافضي الصهيونية بهذا الشكل الواضح والحاد صغيرًا في المجتمعات الغربية.

ب ـ عدم الاكتراث بالصهيونية:

يذهب بعض اليهود إلى أن الصهيونية لا تعنيهم من قريب أو بعيد، وأنها قضية تخص المستوطنين الصهاينة أو بعض قطاعات اليهود ممن يبحثون عن وطن جديد لهم. ويمكن القول بأن عدم الاكتراث هو الموقف السائد الآن في العالم. وكثير من كبار مثقفي اليهود في العالم ينتمي إلى هذا الفريق.

ج ـ التملص من الصهيونية:

مع هيمنة الصهيونية وتسلمها قيادة الجماعات اليهودية في العالم، أصبح من الصعب التصدي لها ورفضها علانية؛ ولذا يلجأ بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى إطلاق التصريحات النارية من أجل إسرائيل، لكنهم لا يفعلون شيئًا يخدم مصلحتها. ولعل الصهيونية التوطينية في شكل من أشكالها هي تعبير عن هذا التملص. وقد شبه أحدهم هذا النوع من الصهيانة بفرق الإنشاد العسكرية التي تغني نشيدًا عسكريًا يقول: «إلى الأمام إلى الأمام»، لكنهم هم أنفسهم ثابتون في أماكنهم لا يتحركون.

د ـ نقد الصهيونية:

يتقبل كثير من يهود العالم الدولة الصهيونية كحقيقة قائمة، لكنهم يتوجهون بالنقد الجذري (أحيانا) للحركة والدولة الصهيونيتين. فبعض المتدينين من الأرثوذكس يوجه نقدًا إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة علمانية تنتشر فيها الإباحية ولا تقام فيها الشعائر الدينية. وبعض العلمانيين واليهود والإصلاحيين والمحافظين يجدها دولة دينية غيبية جامدة، ترفض التعددية والتنوع، وتهيمن اليهودية الأرثوذكسية عليها. وبعض الليبراليين يجد أنها دولة يسيطر عليها القطاع العام وبعض المثاليات الاشتراكية الجامدة، وأنها ذات نزعة توسعة، وتمارس التمييز العنصري. ويجدها بعض اليساريين دولة عميلة للولايات المتحدة واقتصادها، تدور في فلك الاقتصاد الرأسمالي الغربي، ومتحالفة مع النظم الفاشية في العالم. وهناك كثيرمن يهود العالم يرفض المفهوم الصهيوني الخاص بمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا، ويطرح بدلا من ذلك مفهوم مركزية الدياسبورا في حياة اليهود.

إن الصورة الموجزة السابقة تبين أن علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بإسرائيل ليست علاقة حميمة، وأنها مشوبة بكثير من التوتر، لكن معظم يهود العالم يرفع لواء الصهيونية ويؤيد دولتها من أجل رفع معنوياته وتحسين صورته إلى أن تسقط الأنماط الإدراكية التقليدية التي سادت في الحضارة الغربية، والتي ترى اليهودي جشعًا مصاصًا للدماء وجبانًا لا رحمة عنده ولا شفقة، ليحل محلها اليهودي المحارب الذي يزرع الصحراء ويبذل العطاء للشعوب المستضعفة. ولذا، فإن سقوط الصورة الإعلامية الجميلة للدولة الصهيونية يقلل من جاذبيتها ليهود العالم، فيبذلون قصارى جهدهم من أجل أن يحتفظوا بمسافة بينهم وبينها، والابتعاد عنها، وعدم التوحد بها اسمًا وفعلاً.